الفصل السادس عشر

ديانة الشعوب البدائية في قارة أستراليا

مقدمة

إن الشعوب البدائية الحالية أو التي انقرضت الآن والتي كانت تسكن في قارة أستراليا وجزر الأقيانوس وفي أواسط إفريقيا وفي جنوبها وفي قارتي أمريكا، تختلف هذه الشعوب إلى حد كبير في المفاهيم الدينية ولكنها من حيث الأساس تتفق إلى حد ما في الاعتقاد بالقوى غير المرئية، وفي بعض الأوضاع الدينية، وممارسة الطقوس. والاختلاف في المفاهيم الدينية ناشئ عن عزلتها عن الشعوب الأخرى وعدم اختلاطها مع الشعوب المتقدمة في الحضارة، وتفاوت درجتها في الثقافة وتباين المناطق الجغرافية التي تسكنها وشروط البيئة التي تعيش فيها. ويبدو أن سكان قارة أستراليا الأصليين وأهل جزيرة «تاسمانيا» وبعض الجزر المنتشرة في المحيط الهادي أكثر تلك الشعوب تأخراً في المفهوم الديني، وقد يحاكيها في ذلك سكان جزر «الأندمان» وأقزام إفريقيا وشعب أرض النار في جنوبي قارة أمريكا الجنوبية، وسنبدأ بذكر شعوب أستراليا وجزر الأوقيانوس.

سكان أستراليا الأصليون

إن أستراليا جزيرة كبيرة كانت بمعزل عن العالم المعمور، ما عدا ناحيتها الشمالية القريبة من آسيا، ولهذا فإن المدخل الوحيد الذي يمكن أن ينفذ منه الناس والأفكار على أستراليا هو ناحية الجزر القريبة من رأس يورك في شمال أستراليا.

obeikandl.com

ويُعتقد أن أول من استوطن هذه القارة من السكان هم أولئك الذين استوطنوا جزيرة تاسمانيا عندما كان مضيق توريس في الشمال ومضيق باس ما يزالان جزأين من اليابسة، ولما هبطت الأرض وانفصلت تاسمانيا انعزل أهلها عن بقية سكان القارة ولا يوجد اليوم أحد من أولئك التاسمانيين. وبعد انفصال تاسمانيا نزح إلى أستراليا جنس جديد دخلها من الشمال وصار يعرف بالأستراليين الأصليين وذلك قبل أن تهبط الأرض في شمال رأس يورك وقبل تكوّن مضيق توريس، فلما تكوَّن هذا المضيق انفصل الأستراليون عمن يليهم إلى الشمال كما انفصل التاسمانيون من قبل، ولبثوا قروناً طويلة دون أي اتصال بالعالم الخارجي لبعد القارة عن العمران في جميع الاتجاهات إذا استثنينا شمالها الشرقي. وقد حرمتهم هذه العزلة من أن تصلهم أفكار من الخارج. فبقوا على حالتهم المتأخرة، ولم يحدث تأثير كبير في طريقة حياتهم. أما سكان الشمال فإن ثقافتهم وطرق حياتهم اعتراها بعض التغيير لقربهم من غينيا الجديدة وجزر مضيق توريس التي كان أهلها يجوبون البحار في زوارقهم المنحوتة من جذوع الأشجار. ومن المحتمل أن عدد السكان الأصليين في أستراليا لم يكن كبيراً في يوم من الأيام. ويقدر أنه كان في سنة 1788 يتراوح بين 250 إلى 300 ألف نسمة، ومنذ دخل الجنس الأبيض أخذ عدد هؤلاء في التناقص حتى أنه لا يقدر اليوم بأكثر من 50 ألف نسمة. ويرى بعض العلماء أن سكان أستراليا الأصليين ينتمون إلى جنس واحد هو المعروف باسم «ما قبل الدرافيدي» وهم دون شك من أقدم شعوب العالم.

ويعيش سكان أستراليا حياة التجوال وراء الصيد والماء، يتجولون في منطقتهم هنا وهناك في جماعات صغيرة لا تزيد إحداها عن عائلتين أو ثلاث. وتتكون العائلة في العادة من الزوج وزوجته أو زوجاته وأولادها، ويقيمون مضارب مؤقتة بجوار موارد الماء. ويعتمد سكان أستراليا الأصليون في غذائهم على لحوم الأسماك والسحالي والضفادع والثعابين والديدان والحشرات، وعلى الخضار البرية، وبعبارة أخرى كل شيء غير سام صالح للأكل. ومهارة الأستراليين في قتل الحيوانات البرية والإيقاع بها بأسلحتهم البدائية أمر عجيب حقاً، فإن كل ما كان في متناول أيديهم من المواد الأولية يصنعون منها أسلحتهم ولم يكن يعدو عن الأحجار والأصداف والعظام والأسنان والخشب وألياف النباتات المتنوعة.

ديانة سكان أستراليا

إن الطوطمية هي النظام الديني المرعي في أستراليا. وقد اقتبس العلماء الذين زعموا أن الطوطمية هي الدين الابتدائي الأول أدلتهم من دراستهم للشعوب الأسترالية بالدرجة الأولى. والطوطمية تختلف في أوضاعها بعض الاختلاف بين القبائل الأسترالية والقبائل المتأخرة منها كالأرونتا مثلاً حيث ما تزال تحتفظ بأوضاع طوطمية بدائية.

ومن القبائل من تمسكت كثيراً بأحكام الطوطمية ولاسيما بالمحرمات، ومنها من تساهلت وحللت أكل لحوم بعض الطواطم. فقبائل الأرونتا مثلاً وهي متأخرة جداً تجهل الحمل بواسطة اجتماع الرجل والمرأة ويعتقد الناس بأن الحمل ينشأ من حلول روح في المحل الذي شعرت فيه المرأة مرة بحركة الجنين في بطنها[1].

العبادة السلبية

الخطيئة في نظر البدائي من سكان أستراليا تقريب غير المقدس من المقدس، أي جعل المقدس لا مقدس. ولهذا يصبح أول شروط الدين الحيلولة دون الاقتراب من الأمور المقدسة، ومنع الاتصال بين الديني والدنيوي. ولأجل ممارسة العبادة يتوجب على العابد أن يتخلص من الدنس، أي أن يتطهر. وبعد هذا التمهيد يرى «دوركهايم» أن في عبادة سكان أستراليا الطوطميين مرحلتين ولكل مرحلة منهما غاية دينية.

إن الاحتفال الذي يجري لغرض تجريد الفرد مما يحول دون اشتراكه في الحياة الدينية مع الجماعة، وعليه أن يقوم ببعض الأعمال لكي يهيئ نفسه لذلك، والأعمال هذه من العبادة السلبية هي أولى مراحل التعبد. أما في المرحلة الثانية فيكون الفرد قد تجرد من اللامقدس ويستطيع حينئذٍ أن يشارك زملاءه في الاحتفالات الجماعية في أوقات معينة. وهذه الاحتفالات من أعمال العبادة الإيجابية، فكأن الأولى من أجل الفرد والأخرى من أجل المجتمع.

مستلزمات العبادة السلبية: إن أول ما ينبغي للفرد في العبادة رعاية أحكام التابو رعاية تامة، وذلك بامتناعه عن المحرمات إطلاقاً، ولذلك كانت مخالفة التابو من الذنوب التي يعاقب عليها المخالف عقاباً معنوياً، كأن يفشل في مشاريعه أو

---

[1] طه الهاشمي: تاريخ الأديان، ص 238- 240.

يمرض أو يموت. وإذا كانت المخالفة شديدة فيعاقب عليها عقاباً مادياً، كأن يُقتل أو يُنبذ أو يُطرد من الجماعة. إن أشد أنواع التابو تحريماً عند الأستراليين هو مسّ الدنس للمقدس، لهذا كانت الشورنجا، وهي المادة المقدسة من الطوطمية لا يجوز للنساء والصبيان رؤيتها، حتى ولا يجوز للرجال أنفسهم مسّها إلا بعد إجراء بعض الطقوس التي لا بد منها. إن روح الميت مقدسة لأن الروح تظل ملاصقة للجثة، لذلك ينبغي لف الجثة وعظامها، ولا يجوز نقلها إلا بعد لفها بلحاء بعض الأشجار. وكذلك ينبغي الابتعاد عن المكان الذي حدثت فيه الوفاة، لأن الناس يتصورون أن روح الميت تقيم فيه. فلهذا ينقلون مسكنهم إلى مكان آخر. ويحدث أحياناً أنهم يحرقون المسكن بما فيه ولا يعودون إليه إلا بعد مرور مدة من الزمن. وهناك تحريم لبعض الأطعمة أي تابو الطعام، ومن الطعام ما حرم أكله للجميع، ولاسيما للنساء ومنها ما يجوز. والفتى قبل أن يبلغ السن المعين على الرغم من رعايته لأحكام التابو رعاية تامة ينبغي له أن يجتاز الاختبار المعين الذي يؤهله الاشتراك في الاحتفالات الدينية والاجتماعية. وينبغي للفتى في هذا الاختبار أن يتحمل الرياضات البدنية الشاقة بصبر وتحمل مراسم تهيئة الفتى للدخول في الحياة الدينية. إن التعذيب من جملة الرياضات التي يختبر بها الفتى المرشح والغرض منه تهيئته لمجابهة المخاطر في الحياة الدينية.

الطقوس الإيجابية

وهي نوع من العبادة تجري في أوقات معينة وفي أماكن خاصة يشترك فيها الرجال الذين تم اختيارهم وسمح لهم بالاشتراك. وتجري المراسم في مرحلتين: ويظن أنها تجري لإحياء ذكرى الأجداد الأسطوريين الذين تعتقد العشيرة أنها نزلت من صلبهم، ولذكرى حياتهم في الأرض، والآثار التي خلفوها في الأماكن التي عاشوا فيها، وتتميز هذه الآثار بالأحجار والصخور، ويعتقد الناس أن الأجداد قد نصبوها، وأنها تكونت من نفسها في الأماكن التي غاص فيها الأجداد، أو أنها تمثل الحيوانات والنباتات التي اتخذها الأجداد طواطم لهم. ومن أجل ذلك يعتقد الناس أنها تتصف بكل صفات الحيوانات والنباتات المذكورة، وتبدأ المراسم في الوقت الذي يعلنه الرئيس.

ويجتمع أفراد العشيرة الذين يشتركون في الاحتفال في المحل المعين، أما أفراد

العشيرة الآخرون فيقفون بعيداً عنهم، ويترك المحتفلون محل الاجتماع تاركين فيه بضعة رجال، ثم يبدؤون بالمسير وهم عزل من السلاح وعراة من كل زينة، يسيرون بصمت مهيب. ويمرون بالأماكن التي يظن بأن ذكريات الأجداد ترفرف فيها، وينتهي مسيرهم في مكان توجد فيه صخرة منصوبة محاطة بأحجار صغيرة مدورة ويضرب الرئيس الصخرة بخشبة، ثم ينشد نشيداً يحثّ فيه الحيوان (الطوطم) على أن يبيض ويضرب الأحجار أيضاً ويعمل الرجال مثله ضاربين الأحجار بسيقان اقتطعوها من شجرة في طريقهم، وينشد الجميع النشيد ثم يزورون محلات أخرى مشابهة للمحل الذي تركوه. ويبدو أن الغرض من ضرب الأحجار إزالة الغبار عنها، ويعتقد الناس أن كل ذرة غبار تحتوي حياة، وبنثر الغبار تنتشر بذرات الحياة في الأطراف وتمهد السبيل لتكاثر الحيوان الطوطم.

أما قبيلة الأرونتا فتعتبر الدم العنصر المهم في هذه الاحتفالات لهذا يسقون الأحجار المقدسة بدماء يستنزفونها من بعض رجالهم. وبعد أن تشبع الأرض بالدم يرسمون به خطوط الحيوان الطوطم، ثم يجلسون القرفصاء حوله وينشدون الأناشيد، وتختلف المراسم باختلاف الطواطم.. سمكة أو ثعبان أو كنغر... وتجري مراسم أخرى في وقت الجفاف وهي لا تختلف كثيراً عن الاحتفالات الأولى والغاية منها حثّ الأجداد على إنزال المطر.

اعتقاد الأستراليين بوجود كائن أعلى

إن العلماء الذين خالطوا سكان أستراليا الأصليين اعترفوا بأن لهؤلاء البدائيين بعض الأساطير والمعتقدات تدل على سمو إدراكهم الديني. ويكاد يكون لكل قبيلة أو عشيرة معتقد بكائنها الأعلى، ويتصور الناس في الأغلب بأنه يقيم في السماء ويسمونه بأسماء مختلفة كأب العالم وأبو الكل والأب والسيد، ويصفونه بصفة الفاعل والخالق المحيي والعليم والبصير... يتكلم بالرعد ويرمي بالصاعقة وينزل المطر. وبلغ الإدراك الديني في بعض العشائر من السمو أنها جعلت لأعمال الإنسان الحسنة عاقبة، واعتقدت إحدى القبائل أن كائنها الأعلى يعامل الناس حسب أعمالهم، فيرفع الصالحين إلى حضرته في السماء. ومن الطبيعي أن يشخصه الناس ويتصورونه بصورة بشر، فيكون أحياناً ضخم الجثة وله أزواج وبنون... إلخ.

ويعتقد بعضهم أن أرواح الموتى تعرج إليه، ومنهم من اعتقد أن الكائن الأعلى هبط إلى الأرض وخالط الناس، ثم غضب عليهم وعرج إلى السماء فلم يعد يهتم بشؤونهم.

دفن الموتى

عندما يموت شخص تدفن جثته عادة، ولكن بعض قبائل المناطق الوسطى تترك الجثة معروضة في مكان خاص أو فوق شجرة، أما قبائل نيوساوث ويلز فتحرقها. والحزن على الميت يُعبَّر عنه بإحداث ندبات عميقة في الجسد وحلق شعر الرأس.

السـحر

يلعب السحر دوراً مهماً في حياة الأستراليين ويكاد يؤثر في كل ما يأتون به من أعمال، ويستطيع الساحر ممارسة السحر الأسود ضد أي شخص أساء إليه. أما السحر التطبيقي فلا يمارسه إلا المحترفون. ومن المواد التي تُنسب إليها قدرة سحرية خارقة بلورات الكوارتز وشحم الكلى البشرية. ويمر ممارس السحر باختبار خاص يشتمل على تمثيل القتل وإعادة الحياة، كما أن استنزال المطر من الأمور التي يمارسها الناس في كل مكان.

دين التاسمانيين

«تاسمانيا» *Tasmania* جزيرة واقعة إلى أقصى جنوبي أستراليا. والآراء عن دين التاسمانيين متضاربة. زعم بعض العلماء أن التاسمانيين لا دين لهم. والقائلون بهذا الرأي هم الذين حصروا مفهوم الدين وضيقوا افقه. لهذا أكد الثقاة أن التاسمانيين يعبدون الأرواح التي تعمل في الخفاء، وتضر الناس، وتمتاز من بين هذه الأرواح «الروح العظمى»، ويعتقدون بأنها شيطان شرير يعمل في الليل لأن الظلام مملكته. ومع ذلك فهناك علماء يرون أن للتاسمانيين كائناً أعلى يعمل في النهار وهو خير. ومن العلماء من قال إن التاسمانيين يعتقدون بالملائكة والروح الحارسة، كما يعتقدون بحشد من الكوائن القادرة يكونون اعتيادياً أشراراً ويقيمون في شقوق الصخور وفي الكهوف ويقطنون أحياناً جذوع الأشجار المجوفة وفي الوديان المنعزلة، ويعزون سلطة كبيرة لبعض تلك النفوس[1].

---

[1] ج.و. بيدج: الشعوب البدائية في وقتنا الحاضر، ترجمة: محمود موسى، مراجعة زكي الرشيدي، مكتبة النهضة المصرية، ص 82-83.